صور من التاريخ الإسلامي

١ ــ الفردوسي (١)

للأستاذ عبد الحميد العبادي

احتفلت الأمة الأيرانية فى أكتوبر الماضي بذكرى مرور ألف سنة على ميلاد شاعرها الأكبر أبي القاسم الفردوسي ، وقد دام احتفالها نحو شهر من الزمان كانت إيران كلها فيه متصلة الأعياد بادية البشر والسرور . ولم تكن الحفاوة بتلك الذكرى مقصورة على الايرانيين وحدهم ، فقد شاركهم فيها العالم المتحضر شرقه وغربه ، فأوفدت ثماني عشرة دولة كبيرة إلى إيران من يمثلها فى الاحتفال بذكرى الفردوسي ، وزاد بعضها من قبيل المجاملة للأيرانيين والمبالغة فى تقدير شاعرهم فاحتفى بتلك الذكرى احتفاء خاصاً فى عواصمه . فعل ذلك الألمان فى برلين ، والانجليز فى لندن ، والفرنسيون فى باريس ، والايطاليون فى رومية . وعما قريب تحذو مصر حذوهم فتهب ذكرى الفردوسي أسبوعاً من الزمن يتحدث فيه بالقاهرة نفر من فضلائها عن حياة الفردوسي وشعره ، وعن أثر قومه فى عالم الفن والأدب

وأريد بهذه المناسبة أن أعرض فى هذا المقال وفى مقال آخر آت ببيان وجيز لسبب حفاوة الفرس وغير الفرس بذكرى الفردوسي . وسنرى أن البحث سيكشف لنا عن شخصية فذة عجيبة حقاً . شخصية استطاعت من جهة أن تستنقذ قومية ولغة كان يتنازعهما البقاء والعدم ، ومن جهة أخرى ساهمت بنصيب موفور فى ميراث العالم الأدبي الباقي على وجه الزمان

* * *

هو أبو القاسم الحسن بن على الفردوسي ، وكلمة (الفردوسي) لقبه الشعرى ، فقد جرت عادة الفرس من قديم أن يخلعوا على شعرائهم ألقاباً خاصة كالدقيقى ، وملك الشعراء ، وحكم الشعراء وهكذا . ولد على رأى بعض الثقات حوالى عام ٣٢٥ هـ بقرية من قرى مدينة طوس بخراسان يقال لها (باژ) ، وورث عن أبيه ضياعاً كانت تغل عليه فى صدر حياته كفايته من المال . وتعلم فى حداثته ما كان يتعلمه أمثاله من أبناء الدهاقين فى ذلك الزمان ، فحذق الفهلوية والعربية ، وشغف فى صباه بقرض الشعر الفارسى والتوفر على مطالعة القصص الفارسى القديم . فأنشأ كل ذلك فيه اعتداداً بقومه واعتناقاً لمذهبهم الشيعى . وشدا شيئاً من آراء المتكلمين من المعتزلة ، فنشأ فارسى الهوى ، شيعى المذهب ، معتزلى الرأى

كان أمر خراسان فى ذلك الوقت إلى الدولة السامانية ، وهى دولة فارسية من الدول التى تقسمت سلطان الدولة العباسية بضعف السلطة المركزية فى بغداد ابتداء من القرن الثالث الهجرى . وقد جهد السامانيون فى بعث الروح القومى الفارسى مستعينين على ذلك بما للتاريخ والأدب من القوة فى إذكاء الروح القومى عامة . فنقل وزيرهم البلعمى برسم الأمير منصور السامانى تاريخ الطبرى إلى الفارسية ، وتقدم عاملهم على طوس أبو منصور ابن عبد الرزاق إلى رجل يقال له أبو منصور المعمرى فى جمع أخبار الفرس القدماء فى شكل تاريخ شعبى لفارس من أقدم عصورها إلى الفتح الأسلامى ، فعهد المعمرى بالأمر إلى أربعة من الفرس الزرادشتيين لجمعوا ذلك التاريخ من الكتب المحفوظة فى قلاع فارس ، وفى خزائن الموابذة والدهاقين . ثم كتبوا ذلك التاريخ بالفارسية الحديثة وسموه « الشاهنامة » أى « كتاب الملوك » ، وكان ذلك حوالى عام ٣٤٧ هـ ؛ وأراد السامانيون أن يسهل على الفرس تناول هذا التاريخ وتداوله فعهد الأمير نوح ابن منصور السامانى بنظمه شعراً إلى فتى فارسى شاعر يعرف بالدقيقى . فأخذ الدقيقى فى ذلك فنظم منه ألف بيت ثم هلك غيلة حوالى عام ٣٦٦ هـ

اطلع الفردوسي على الشاهنامة المنثورة وعلى ما نظم الدقيقى منها من نسخة أعاره إياها صديق له يقال له (محمد لشكرى) . وأشار عليه ذلك الصديق أن يتم ما شرع فيه الدقيقى ، وصادف ذلك هوى فى نفسه ، فامتثل الاشارة وعكف على نظم الشاهنامة من حيث انتهى صاحبه ، فقضى فى ذلك ثلاثاً وعشرين سنة أتم

(١) أذيع مضمون هذا المقال بالراديو من محطة الأذاعة المصرية فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣٤. هذا ولم نقصد فى بحثنا إلى تاريخ الشاعر من الناحية الفنية فليس ذلك من شأننا ، إنما قصدنا إلى التحدث عنه من حيث أن حياته تلق ضوءاً على الحال السياسية لآسيا الوسطى الأسلامية فى القرن الرابع الهجرى . ومن يرد سيرة الشاعر نفسه فليلتمسها فى مظانها وخاصة الشاهنامة نفسها ، ومقدمة (مول) للترجمة الفرنسية للشاهنامة ، وكتاب نولدكه عن الشاهنامة ، ومقدمة الدكتور عزام لترجمة البندارى العربية للشاهنامة

فيها نسخة الشاهنامة الأولى (٣٨٩ هـ) ثم أهدى تلك النسخة إلى كبير من كبراء الفرس الظاهرين بأرض أصبهان يقال له أحمد الخالنجانى ، فأجازه عليها بجائزة يسيرة

* * *

فى تلك السنين الطوال كانت خراسان قد تبدلت بها الحال ، لاضطراب أمر الدولة السامانية القومية المستنيرة ، وعراها مايمرو البلاد عادة عند التأذن بذهاب دولة وقيام أخرى . فأهملت المرافق العامة وخاصة مرافق الرى ، والبلاد بعدُ بلاد زراعية ، فشح الماء ، وجف الزرع ، وأجدبت الحقول ، ونالت ملاك الأراضى شدة تعذر عليهم معها أداء الخراج الموضوع على أراضيهم . وكان الفردوسى بطبيعة الحال من ضحايا تلك الشدة الاقتصادية ، وزاده ضنكا وسوء حال انصرافه إلى حياة الأدب المحض ، واضطراره إلى أن يستكفى غيره النظر فى شئون أرضه . ويظهر أثر تلك الحال واضحاً فى ترديده فى شعره الشكوى من الفاقة وتنكر الزمان . وقد اضطر آخرة الأمر إلى مسألة أصدقائه ، فأعانه منهم نفر كرام النفوس أو فياء القلوب ، كافأهم عن صنيعهم بأن نوه بذكرهم فى الشاهنامة . والحق أن الفردوسى ، وقد فقد الانتفاع بأرضه أصبح يرى أن من حقه على الناس أن يكافئوه على جهوده الأدبية بمال يزوج منه ابنته الوحيدة ، وينفق منه على نفسه فى شيخوخته . وطفق لذلك يبحث عن أمير نبيل أو ملك جليل يهدى إليه الشاهنامة فيجيزه عنها بجائزة تحقق أمنيته ، وسرعان ما وجد ذلك الملكَ الجليل فى شخص السلطان محمود الغزنوى

والسلطان محمود الغزنوى أوحد ملوك الاسلام لذلك العهد ، وأحد أبطال التاريخ الاسلامى على الأطلاق . قد شاد بعزمه وهمته ملكاً عريضاً وسع سهل الهندستان ، وخراسان ، وتركستان ، وطبرستان ، وفارس . وأصبحت قاعدته (غزنة) بمساجدها ومدارسها وخزائن كتبها وعلمائها الأعلام من أمهات المدن الاسلامية . ويقال إنه لم يجتمع قط فى مدينة أسيوية فى وقت واحد من أعيان الأدب وأقطاب العلم والفلسفة مثل من اجتمع بغزنة على عهد السلطان محمود . ذلك بأن السلطان كان شغوفا بالعلم والأدب ، حريصاً على اجتذاب العلماء من مختلف البلدان الاسلامية ليقيمهم بحضرته ، فيزدان بهم بلاطه ، وتكون له من قربهم شهرة أدبية تضاف إلى شهرته الحربية التى طبقت الآفاق . ومن العلماء الذين حفلت بهم غزنة على عهده ، البيرونى والعتبى المؤرخان ، والفارابى الفيلسوف ، وأبو الفتح البستى الشاعر العربى ، والمسجدى والمنصرى والفرّخى ، وكلهم من سباق شعراء الفرس فى الاسلام . وكان الرئيس أبو على بن سينا قد قصد حضرة السلطان ثم بداله فعدل عنها إلى جهة أخرى . وكان السلطان كلما فرغ من حرب وأقام بعاصمته متودعاً ، جلس إلى أولئك العلماء يحدثهم أو يستمع إلى حديثهم ، وهو فى تصيده العلماء ومباهاته بهم يذكرنا بسيف الدولة الحمدانى ، والحكم المستنصر الأندلسى ، وبفردريك الأكبر ملك بروسيا ، ولويس الرابع عشر ملك فرنسا

ذلك هو الملك الجليل الذى رآه الفردوسى مهوى فؤاده ومحط آماله . فأخذ بعد المدة لانتجاع حضرته والاغتراف من فيض جوده . فجعل يراجع الشاهنامة ، مطامنا بين أجزائها ، مكملاً ما نقص منها ، مستدركاً ما فاته فى نسختها الأولى ومحلياً فصولها بمدح سنية بطوق بها جيد ذلك الملك العظيم . وقد قضى فى ذلك إحدى عشرة سنة ، فقد فرغ من إعداد النسخة الثانية للشاهنامة عام ٤٠٠ هـ وبلغت عدة أبياتها ستين ألفاً

* * *

توجه الفردوسى الى غزنة ومعه راويه ونسخة الشاهنامة ، فلقى وزير السلطان الرئيس الكبير أبا العباس الفضل بن أحمد ، وكان معنياً بنشر الفارسية ، فأبلغه حضرة السلطان . واطلع السلطان على الشاهنامة ، ولا ريب أنه أدرك أنها ثمرة مجهود عقل جبار ، ولكنه مع ذلك لم يتقبلها بقبول حسن . والروايات القديمة مجمعة على أن الوشاية والكيد قد عملا عملهما فى إفساد قلب السلطان على الوزير والشاعر معاً . ولكن الأمر أجل من ذلك وأعظم . فليس من شك فى أن ذلك السلطان التركى المسلم ، الذى أنفق من الجهد فى إعلاء كلمة الأسلام فى الهند ما أنفق ، والذى كان نصيراً للسنة ، وخصما ألد للباطنية والمعتزلة ، هذا السلطان لم يعجبه أن يشيد الفردوسى بمجد حازه الفرس أيام مجوسيتهم ، كما لم يعجبه أن ينفخ فى بوق العصبية الفارسية ، وأن يدير كتابه على الحروب التى وقعت فى القديم بين إيران وطوران ، كما لم يعجبه تشيعه وجهره بآرائه الدالة على اعتزاله . كل ذلك قعد بالسلطان أن يجيز الشاعر بالجائزة التى كان يتوقعها ، والتى كان يعلق عليها

آمالا كباراً . فيقال إنه بعث اليه بعشرين ألف درهم فقط مكافأة على مجهود خمس وثلاثين سنة

لكن الفردوسى لم يكن الرجل الذى يحتمل هذا التقصير فى حقه . فقد جزى السلطان شر جزاء . فيقال إنه دخل حماماً فلما خرج منه شرب فقاعاً ، ثم قسم عطية السلطان بين الحمامى والفقاعى . وبلغ ذلك السلطان فهاج غضبه ، وهم بأن يبطش بالشاعر ، فلاذ الفردوسى بالفرار من غزنة ، وظل مختبأ بمدينة هراة ستة أشهر نظم فيها مائة بيت من الشعر هجا فيها السلطان هجاء لاذعاً موجعاً . فلما سكن عنه الطلب خرج إلى طبرستان ونزل على صاحبها الأصبهبد شهريار فأكرم مثواه وطيب خاطره ، واعتذر اليه عن السلطان بأن الأمر لم يعرض عليه كما ينبغى ، واشترى منه هجو السلطان بمائة ألف درهم ، ثم محا ذلك الهجو من الشاهنامة محواً . بيد أن الفردوسى رأى أنه غير آمن على نفسه فى طبرستان لأنها داخلة فى حكم السلطان محمود ، فخرج عنها إلى العراق العربى ، ونزل على أميره سلطان الدولة البويهى . ونظم له قصة (يوسف وزليخا) وهى من قصص القرآن الكريم . والفردوسى يصرح فى صدر هذه القصة بأنه نظمها تكفيراً عن إضاعته عمره فى نظم الشاهنامة ، التى حشوها أساطير الفرس الأولين ، ولكن يظهر أن الفردوسى أراد بنظم تلك القصة أن يلائم بين نفسه وبين البيئة العربية التى أدى به تطوافه اليها

ومهما يكن من شىء ، فلا شك أن الفردوسى رأى نفسه غريباً بالعراق ، وأن سراج حياته يوشك أن ينطفىء ، وأحب أن يوافيه أجله فى مسقط رأسه ، قريباً من ابنته ووسط أهله ومعشره ، وهون الخطب عليه أن السلطان كان قد ذهب عنه غضبه عليه ، وأن أمره كان قد نسى أو تناسى ببلاط غزنه . فخرج من العراق شاخصاً نحو طوس ، فبلغها شيخاً فانياً مهدود القوى قد جاوز الثمانين

وتذكره السلطان محمود فى ذلك الوقت . وذلك أنه كان راجعاً من الهند الى عاصمة ملكه ، فعرض له ثائر فى قلعة حصينة ، فأرسل السلطان الى الثائر رسولاً أن « إبت غداً . وقدم الطاعة واخدم حضرتنا ، والبس التشريف ، وارجع » فلما كان الغد ركب السلطان والى جانبه وزيره أحمد بن الحسن الميمندى . فلما بصر السلطان بالرسول مقبلا قال للوزير « ترى ماذا يحمل من الجواب ؟ » فتمثل الوزير ببيت من الشاهنامة معناه « إذا لم يكن الجواب كما أريد ، فأنا والجرز والميدان وافراسياب » فقال السلطان « لمن هذا البيت الذى تنبعث الشجاعة منه ؟ » قال « للمسكين أبى القاسم الفردوسى الذى احتمل العناء خمساً وعشرين سنة وما جنى أية ثمرة » قال السلطان « أحسنت بما ذكرتنى ، إنى ليحزننى أن يحرم عطائى هذا الرجل الحر ، ذكرنى فى غزنة لأرسل اليه شيئاً » فلما قدم الوزير غزنة ذكر السلطان ، فقال السلطان « مر لأبى القاسم بستين ألف دينار يعطاها نيلجا ، ويحمل على الأبل السلطانية ، ويعتذر اليه »

غير أن القدر الساخر شاء ألا تنفذ مشيئة السلطان ، فيقال إنه عند ماوصلت الابل التى تحمل الهدية إلى طوس ، كان الفردوسى قد أسلم الروح (٤١١ هـ) ، وإنه بينما الابل داخلة من بعض أبواب المدينة ، كانت جنازة الشاعر خارجة من باب آخر

وأراد رسل السلطان أن يدفعوا الهدية الى ابنة الفردوسى ، ولكنها اعتذرت عن عدم قبولها . عند ذلك أمر السلطان أن ينفق المال فى بعض وجوه البر ، فعمروا به رباطاً للمجاهدين على حدود أقليم طوس . وكذلك نفى السلطان عن نفسه آخرة الأمر تهمة التقصير فى حق الشاعر الكبير . فان ادعى مدع أنه ظلمه فى الأولى فقد أنصفه فى الثانية ، ودل بذلك على نفس كبيرة وحلم عظيم

* * *

تلك بالاختصار سيرة الحكيم أبى القاسم الفردوسى . وهى سيرة تفصح عما أوتيه ذلك الشاعر من قوة تتمثل فى صدق عزيمته ، وبعد همته ، وعظم غايته ، وثبات مقصده ، كما أنها تفصح عن ضعفه الذى يبدو فى حدة مزاجه ، وكثرة شكواه من الفاقة وتبرمه بالناس والزمان ، ثم فى ندمه فى مطلع قصته الثانية على ما أنفق من جهده وأضاع من عمره فى نظم ملحمته الأولى . على أن ذلك كله ليس مناط تعظيم قومه لذكراه ، إنما مناط ذلك هو الصنيع الجليل الذى أسداه الى القومية الفارسية واللغة الفارسية الحديثة

ولبيان ذلك ينبغى أن نرجع مع الزمن الى أوائل القرن الأول الهجرى ، فقد حمل العرب إذ ذاك على الدولة الفارسية ، وما هى إلا سنوات معدودات ، حتى كانوا قد قضوا على ملك آل ساسان ،

وصيروا فارس أقليماً من أقاليم الخلافة العربية ، وانتشر الاسلام بعقب ذلك فى فارس حتى كاد يقضى على الدين الزرادشتى ، كما انتشرت العربية بين الفرس حتى أخملت الفهلوية وكادت تمحوها

قبل الفرس الاسلام عن طواعية نفس وطيب خاطر . أما القومية فقد جاهدوا من أجل الاحتفاظ بها جهاداً عظيما . وقد تطور هذا الجهاد من مجرد مطالبة بالحقوق العامة قام بها الموالى زمن الدولة الأموية ، الى مؤازرة للثائرين عليها من الخوارج والشيعة ، الى ثورة عامة انجلت عن سقوط الدولة الأموية العربيـة ، وقيام الدولة العباسية التى كانت فارسـية فى أكثر أوضاعها العامة ، الى استقلال سياسى يسره ضعف السلطة المركزية ببغداد ، الى سعى حثيث فى أن يكون للفرس وجود قومى صحيح

الى هذا المجهود الضخم الموجه الى الاحتفاظ بالقومية ، قام الفرس بمجهود آخر رائع من أجل إنهاض لغتهم وتعميم استعمالها فى بلادهم

لقد طغت العربية على الفهلوية فى العصر العربى الأول طغياناً كان من أثره أن انحصر استعمال هذه اللغة فى حدود إقليمية ضيقة : فى فارس وخراسان وطبرسـتان ، ولم تسلم الفهلوية فى معاقلها هذه من التأثر بالعربية ، فقـد أصبحت تكتب بالحرف العربى ودخلتها ألفاظ وتعابير عربية أحالتها الى طور جديد من تاريخها عرفت فيه بالفارسية الحديثة . وبتنبه الشعور القومى عم استعمال اللغة المذكورة فى تلك الأقاليم الثلاثة ، حتى كادت العربية تنمحى من بعضها ، كما يؤخذ من قول المتنبى : —

مغانى الشعب طيبا فى المغانى ... بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيها ... غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنـة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان

وقد عول سـاسة الدول الثلاث : الطاهرية والصـفارية والسامانية ، على أن يجعلوا الفارسية الحديثة لغة أدب وتدوين ، فشجعوا الشعراء على النظم بالفارسية ، وأمر السامانيون بتدوين تاريخ قومى للفرس ، ونظمه بهذه اللغة كما تقدم القول

وعلى الرغم من التقدم الذى أحرزه الفرس فى أمر قوميتهم ولغتهم ، فانهم كانوا فى أواخر القرن الرابع بحاجة الى مدد أدبى ممتاز يبعث فى القومية الفارسـية روحاً قوياً ، ويثبت دعائم الفارسية الحديثة وينهضها على أساس ثابت ، وقد أمد الفردوسى قومه بهـذا المدد . فالشاهنامة تمى بأبسط عبارة وأبلغ تصوير تاريخ الفرس القـدماء ومفاخرهم وآدابهم وأساطيرهم . لذلك اضحت فى حياة ناظمها — وهذا أمر منقطع النظير — ملحمة قومية ، ولم يمض طويل زمن حتى غدت « قرآن القوم » على حد تعبير صاحب المثل السائر

* * *

لقد أدى الفردوسى « رسالته الخاصة » أحسن الأداء ، وأصبح فضله على قومه ولغته باقياً ما بقى قومه ولغته وقد عرف له قومه هذا الفضل فذكروه فى هذه الأيام فأحسنوا ذكراه ، وشادوا فوق رفاته بناء عالياً ، وهذا جهد مثوبة الحى للميت . وان الانسان ليذكر فى هذا المقام دانتى الأيطالى ، وكورياس اليونانى ، فكلاهما أذكى الروح القومى فى بلده ، وجدد بمجهوده الخاص دارس لغته ، فهذا بنثره ، وذاك بشعره ؟

(البقية فى العدد القادم) **عبد الحميد العبادى**

ظهرت الطبعة الجديدة لكتاب

رفائيل

صحائف من العشرين

لشاعر الحب والجمال (لامرتين)

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

والقصـة قطعة من شـباب لامرتين ، وجذوة من شعوره ، ولحن من شعره . طبعتها لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعة أنيقة منقحة رخيصة فاطلبها منها أو من ادارة الرسالة أو من أى مكتبة ، والثمن ١٢ قرشاً